

سلطان باشا الأطرش

1891 - 1982

اكتسب سلطان الأطرش صفة الرمز الكبير للثورة السورية بفعل الدور الذي اضطلع به في إطلاقها وفي قيادتها بين عام 1925 وعام 1927. واكتسب لقب الباشا بقرار من شريف مكة الحسين بن علي لدوره في الثورة التي أطلقها الحسين في عام 1916. ذلك أن سلطان باشا الأطرش كان منذ مطلع شبابه، في ظل السلطنة العثمانية وهو مجند في صفوف الجيش العثماني لمحاربة ثوار البلقان، شديد التوق إلى حرية بلاده، مستنكراً المظالم التي كان يرتكبها الأتراك ضد العرب وضد القوميات الأخرى التي كانوا يحكمونها. وقد جعلته مشاعره المبكرة مهيباً منذ شبابه الأول للإنخراط في مشروع الشريف حسين الرامي إلى تأسيس دولة عربية كبرى في المشرق العربي. وكان قد سبق مشروع الحسين في الحلم بإقامة الدولة العربية الكبرى مشروع من الطبيعة ذاتها تبلورت أفكاره في صيغة أولية في المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس في عام 1913 عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى. وهو المؤتمر الذي حضره عدد كبير من قادة الرأي من سوريا ولبنان وفلسطين والعراق ومصر. وما أن اندلعت الحرب حتى ألقى القبض على عدد منهم. وعلقوا على أعواد المشانق مع آخرين في ربيع عام 1915 في وسط مدينتي بيروت ودمشق. لكن حلم الدولة العربية الكبرى لم يفارق بعض القيادات الوطنية في بلدان المشرق العربي. ولم يفارقهم خصوصاً حلم الحرية والإستقلال. فقامت في أعقاب انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الأولى التي انهزمت فيها الدولة العثمانية ثورات وانتفاضات هنا وهناك تحت شعارات مختلفة. قامت ثورة في مصر في عام 1919. وقامت ثورة في العراق في عام 1920. وقامت انتفاضات في مناطق مختلفة في سوريا ولبنان وفلسطين.

ولد سلطان في بلدة القرية إحدى قرى المقرن القبلي في عام 1891. كان في الخامسة من عمره عندما شهد لأول مرة الجنود العثمانيين في بلدته حين اصطحبه والده أثناء حضوره لمقابلة القائد ممدوح باشا المخيم بعساكره في بيادر القرية من أجل جمع سلاح الجبل وسوق شبابه إلى التجنيد الإجباري. شاهد سلطان الطفل بأم عينيه كيف يساق شباب

بلدته إلى الجندية بالأساليب القمعية وبأعمال السخرة على اختلافها. فارتسمت في ذهنه صورة العثماني البشع المستبد الذي يحكم بالسوط وبالسيف. وكان والده وعمه فايز هما اللذان سيقا إلى المنفى مع آخرين من وجهاء البلدة. إلا أن والده لم يصطحب عائلته معه إلى المنفى بخلاف الآخرين. فاضطرت والدته تحت وطأة الخوف من انتقام الجنود العثمانيين أن ترحل مع جدته لأبيه إلى قرية العانات في أقصى جنوب الجبل، ثم إلى التل في البادية الشرقية. كان ذلك النوع من الرحيل إلى الأماكن الوعرة البعيدة عن مراكز العدو أمراً طبيعياً مألوفاً عند دروز الجبل منذ ثورتهم على ابراهيم باشا. ومعروف أن الدروز قد انتفضوا في عام 1896 ضد الأساليب الإستبدادية التي كانت تستخدمها السلطات العثمانية ضدهم، وأفنوا فرقة بكاملها. فردت عليهم الدولة العثمانية في عام 1897 بحملة عسكرية كبيرة واستطاعت أن تخضعهم وأن تسوق المزيد من الشباب إلى الجندية. لكنهم عاودوا الثورة في عام 1900 وأجبروا الدولة على إعادة المنفيين.

لم تسمح تلك الفترة المضطربة من تاريخ الجبل لسُلطان أن يدخل أحد الكتاتيب الخاصة التي كانت تعلم مبادئ الدين والقراءة والكتابة والحساب. يقول سلطان في هذا الصدد في مذكراته: "بقيت لا أتقن القراءة والكتابة على الرغم مما حفظته في البيت من آيات القرآن الكريم ومن رسائل التوحيد عن ظهر قلب حتى أتيج لي تعلم ذلك خلال الثمانية عشر شهراً التي قضيتها في الجندية في بلاد البلقان". وإذا كان قد حرم من الدراسة في الكتاب فإنه عوّض عنها بمدرسة داخل المنزل هي المضافة. وهي في جبل العرب، مثلما هي في سائر البلدان العربية، قاعة الإستقبال والطعام المفتوحة دائماً للضيوف. وكانت تلك المضافة عند زعيم مثل ذوقان الأطرش مجلس شورى تبحث فيه شؤون الساعة وتقرر الأمور العسكرية والمصيرية. وكانت في الآن ذاته محكمة للمتخاصمين تحل خلافاتهم على الأسس العشائرية المتبعة، وملتقى للشعراء الذين كانوا ينشدون أغانيهم الحماسية على أنغام الرياب والناي، وكانوا يروون قصص العرب ومعارك الدروز بأسلوب قصصي

حماسي. كان منزل والد سلطان في مضافته المشار إليها هو البديل بالنسبة إلى الفتى من أية مدرسة أخرى. وفي تلك المنازل بالذات كان يعوّض للصغار عما كان يفترض أن يلقنوه في الكتاتيب. كانت مشاركتهم في المضافات هي التي كانت تغذي عقولهم بالمعارف وتنمي في نفوسهم صفات البطولة والشرف وكرم الأخلاق والفضيلة والشمم والإباء، وتشحذ همهم وتجعل منهم أبطال المعارك في المستقبل الذي ينتظرهم. كان سلطان شغوفاً بسماع قصص قومه وأخبار معاركهم. وكثيراً ما كان يطلب من عمه فايز الذي كان يحبه كثيراً أن يرويها له. كما كان يطرب لسماع القصائد الشعبية الملحنة، لا سيما قصائد شبلي الأطرش الذي كان يهاجم فيها الأتراك ويحذر قومه من غدرهم. والمعروف تاريخياً أن أهالي جبل العرب كانوا شديدي الإهتمام بالصغار. وكانوا يعوّدونهم على تحمل المسؤولية في المنزل وفي الحقل وفي رعاية القطيع وفي الدفاع عن النفس وعن الجماعة. وكان من الطبيعي أن ينال سلطان من كل تلك الأمور قسطاً كبيراً من المعارف والعادات ويتدرب في حياة والده القصيرة على الشؤون السياسية والعسكرية والاجتماعية لكي يكون مؤهلاً لتسلم الزعامة بعد رحيله والقيام بأعبائها بصفته الأبن الأكبر لأبيه. وهكذا فقد مارس سلطان قبل بلوغه سن الرشد هوايات القنص وركوب الخيل والنزول إلى حلبة السباق والتدرب على استعمال السلاح الأبيض والبنادق المعروفة آنذاك. وكان يحب الرحلات العائلية إلى مقامات الأنبياء والأولياء المنتشرة في أماكن متفرقة من الجبل. وجرياً على عادة قومه تزوج في سن مبكرة في التاسعة عشرة من عمره من ابنة عمه فايز، قبل أن يساق إلى الجندية في عام 1910. لكن العروس توفيت بعد فترة قصيرة دون أن يرزق منها أطفالاً. وبعد عودته من الخدمة الإجبارية تزوج من ابنة عمته ورزق منها جميع أولاده.

عاد سلطان في عام 1912 من الخدمة العسكرية ليجد أباه قد شنق في دمشق في عام 1911 ظلماً. إذ غدر به العثمانيون بعد أمان. فتسلم زعامة القرية. وتمكن في فترة قصيرة من حل مشكلة الأرض المتنازع عليها بين بلدته وبصرى الشام. انضم إلى الثورة

العربية بقيادة الشريف حسين بن علي في عام 1916 منذ اللحظات الأولى لقيامها. وخاض معاركها في حوران. وكان أول من دخل دمشق وأول من رفع العلم العربي فيها مع صديقيه أحمد مريود وسعيد الجزائري. وهو العلم الذي كان قد وضع بالإتفاق مع الشريف حسين إبان انطلاق ثورته.

وكانت قد قامت في الأعوام الأولى التي أعقبت نهاية الحرب العالمية الأولى ثورات في عدد من البلدان العربية كما أشرنا إلى ذلك آنفاً. وكانت الشعارات الأساسية لتلك الثورات تتمحور حول مطلب الإستقلال لبلدانها. لكن الأمر اختلف في سوريا عن باقي البلدان العربية. فقد وصل إلى دمشق في عام 1918 الأمير فيصل بن الحسين مرسلًا من قبل والده الشريف حسين ومعه بعض من الجيش العربي ليعلن ولادة الدولة العربية في سوريا الكبرى، تحقيقاً للحلم الذي رافق ثورة والده وانطلاقاً من الوعد الذي كان قد قدمه له البريطانيون ثمناً لمشاركته في محاربة السلطنة العثمانية دعماً للحلفاء. وكان من المفترض أن يكون الأمير فيصل ملكاً على الدولة العربية الكبرى وعاصمتها دمشق. وشكل الأمير فيصل لدى وصوله إلى دمشق حكومة استقلال أعلنت فور تشكيلها رفضها لوجود قوات أجنبية في سوريا ولبنان. وشكلت الحكومة جيشاً وطنياً للدفاع عن استقلال سوريا. وأوكلت وزارة الدفاع فيها إلى يوسف العظمة. وأمت دمشق وفود من شخصيات وطنية من لبنان وفلسطين تأييداً للحكومة العربية ولبرنامجها المعلن. وكان قد وصل إلى مسامع الكثيرين اتفاق سايكس-بيكو الذي كشف عنه لينين في أعقاب انتصار ثورة أكتوبر. وهو الإتفاق الذي كان يرمي إلى تقسيم المشرق العربي (تركة الرجل المريض) إلى بلدان تتقاسم إدارتها بريطانيا وفرنسا، سوريا ولبنان من نصيب فرنسا والعراق وفلسطين وشرق الأردن من نصيب بريطانيا. وجاء مؤتمر الصلح الذي عقد في فرساي في عام 1919 ليكرس ولادة تلك الدول ويضعها وفق ذلك الإتفاق تحت انتداب الدولتين. لم يتأخر الفرنسيون في الرد السريع على مخطط الشريف حسين وولده فيصل. فأرسلوا قواتهم على جناح السرعة إلى سوريا لمواجهة

مشروع الدولة العربية. وزحفت القوات البريطانية في اتجاه العراق. وكان الفرنسيون قد احتلوا لبنان قبل نهاية الحرب. وكان البريطانيون قد احتلوا فلسطين وشرق الأردن. وبدأت الإنتفاضات والثورات تواجه جيوش الحلفاء في كل مكان. واجهت القوات الفرنسية الزاحفة لاحتلال سوريا مقاومة في أكثر من منطقة بين عامي 1919 و1920. ففي منطقة حلب شكل ابراهيم هنانو فريقاً من الأتصاف تمكنوا من توجيه ضربات محدودة للقوات الغازية. ثم تطورت العمليات العسكرية بقيادته واتسعت دائرتها. وكان هنانو عندما اتخذ قراره بمقاومة الفرنسيين رئيساً لديوان ولاية حلب. وفي عام 1920 تمكنت قوة بقيادته من الهجوم على منطقة حازم وتمكن من استعادتها من الجيش الفرنسي. وتشكلت بالإتفاق معه مجموعات أنصافية توزعت على عدة مناطق. كانت المجموعة الأولى بقيادة يوسف السعدون في منطقة أنطاكية المعروفة بالقصير. وكانت الثانية في منطقة صهيون بقيادة عمر البيطار. وكانت الثالثة في جبل الزاوية بقيادة مصطفى الحاج حسين. واستمرت تلك المجموعات في مقاتلة القوات الفرنسية إلى أن وقعت تركيا مع فرنسا اتفاقية سلام في عام 1921 فتراجعت حركة الثوار. وغادر هنانو سوريا إلى الأردن. ثم اعتقل وجرت محاكمة طويلة له انتهت ببراءته وبلجونه إلى الهدوء بعد فشل الثورة وانهيار حكومة فيصل. أما الشيخ صالح العلي فكان من أوائل الذين اشتركوا منذ البداية في ثورة الشريف حسين ضد العثمانيين. وعندما أعلنت الحكومة العربية برئاسة فيصل وبداية الزحف الفرنسي إلى سوريا بدأ يعد العدة لمواجهة القوات الغازية. وجاءه دعم من حكومة فيصل. ودارت بينه وبين القوات الفرنسية عدة معارك في المنطقة الساحلية انتهت إلى الهزيمة أسوة بسائر الحركات التي قامت في مناطق مختلفة من البلاد. وكان يشاركه في تلك المعارك في المنطقة ذاتها عز الدين القسام الذي لجأ إلى الأردن بعد الهزيمة التي منيت بها قوات الثوار. أما أحمد مريود فقد كانت له في الثورة أدوار تعددت وامتدت من لحظة وصول فيصل إلى دمشق حيث كان لمريود شرف رفع العلم السوري على سراي دمشق مع سلطان الأطرش وسعيد الجزائري، وصولاً إلى الثورة السورية الكبرى التي قادها سلطان الأطرش بين عامي 1925 و1927.

ومعروف أن مريود كان قد أعلن ثورته في الجولان في عام 1919. واضطر تحت ضغط القوات الفرنسية أن يغادر من درعا إلى الأردن حيث تابع نشاطه الثوري هناك وقام بأعمال عسكرية عديدة ضد الفرنسيين. وكان من بعض ما قام به محاولته اغتيال الجنرال الفرنسي غورو. ثم غادر بعد ذلك إلى العراق، وعاد منه في عام 1925 للإلتحاق بسلطان الأطرش في الثورة السورية الكبرى. وكانت لكل من عبد الرحمن الشهبندر في الجولان ولمحمد الأشمري في دمشق صولات سياسية وعسكرية في مقاومة الفرنسيين.

كان سلطان الأطرش في البداية يجمع المعطيات إعداداً لعمل لاحق. لكنه اضطر للتسريع في العمل العسكري في مواجهة الفرنسيين بعد اعتقال الثائر اللبناني أدهم خنجر والحكم عليه بالإعدام. كان أدهم قد فرّ من لبنان إلى سوريا عبر الأردن بعد المحاولة التي قام بها لاغتيال الجنرال غورو واحتمى بسلطان الأطرش. ويقول المؤرخون إن سلطان اتخذ من قضية أدهم خنجر سبباً للقيام بعمليات عسكرية ضد الفرنسيين وأوقع في صفوفهم خسائر كبيرة. فردت القوات الفرنسية على تلك العمليات بحملة شرسة على السويدياء ودمرت منزل سلطان ومنازل أقاربه ومناصريه. اضطر سلطان أمام ذلك الوضع الصعب إلى مغادرة الجبل إلى الأردن. وفي الأردن شكل قوات أنصار وبدأ يمارس حرب عصابات ضد الفرنسيين. وهكذا بدأت تتكون بفعل الوقائع المشار إليها شخصيته كثائر صاحب قضية ذات طابع وطني إنقاذي. لكن السلطات البريطانية لم تسمح بالتمادي في نشاطه العسكري الموجه ضد الفرنسيين فطلبت من الأمير عبد الله القبض عليه. لكن الجنود الأردنيين رفضوا تنفيذ الأوامر البريطانية. وكانت السلطات الفرنسية قد أصدرت حكماً عليه بالإعدام. لكنها اتخذت قراراً بعدم تنفيذ حكم الإعدام مشروطاً بتوقفه عن القيام بعمليات عسكرية ضد قواتها المسلحة. وسرعان ما وجد سلطان نفسه فجأة أمام أوضاع صعبة وأمام حلول صعبة في مواجهتها. فقرر في خطوة جريئة العودة إلى بلاده ليعيد العدة للثورة الآتية.

عندما شعر الفرنسيون بعد معركة ميسلون، التي هزموا فيها جيش الدولة العربية وقتلوا قائد الحملة وزير الدفاع يوسف العظمة، أن الأمور قد استتبت لهم بعد أن سيطروا على الوضع في كل المناطق وأخمدوا التمرد والثورة، شرعوا في ترتيب الأوضاع في البلاد السورية منطقة منطقة. واتخذوا قراراً بتقسيم سوريا إلى مناطق إدارية مستقلة فيما يشبه الحكم الذاتي. وفي 31 آب من عام 1920، وهو اليوم الذي أصدر فيه الجنرال غورو قراره بتأسيس دولة لبنان الكبير، أصدر الجنرال أيضاً قراره بإنشاء دولة بلاد العلويين. وفي الأول من أيلول من العام ذاته أصدر قراراً بجعل ولاية حلب حكومة مستقلة. وفي الخامس من نيسان من عام 1921 أصدر القرار الذي يقضي بإنشاء اتحاد بين "الدول" السورية ما عدا جبل الدروز الذي أعطاه صفة دولة مستقلة. وفي صيف عام 1924 أصدر المفوض السامي ويغان قراراً بمنح لواء الإسكندرون استقلالاً مالياً وإدارياً وباعتبار اللغة التركية كاللغة العربية لغة رسمية. وبالإضافة إلى تلك التقسيمات، التي كان من بينها دولة دمشق، أنشأ الفرنسيون للبدو مصلحة خاصة بهم، متصلة بطريقة مباشرة بالمفوضية العليا. جميع تلك التقسيمات دفعت السوريين بالتدرج إلى نضال دام ربع قرن لإعادة توحيد بلادهم وتحريرها من الإنتداب الفرنسي وإقامة جولة الإستقلال في عام 1946.

وإذا كانت سلطات الإنتداب قد استعانت في قراراتها المشار إليها في تقسيم سوريا على بعض الزعامات التي كانت موالية لها أو التي فرضت عليها الموالاة بالقسر، فإن زعامات وطنية أخرى وفي مقدمتها سلطان الأطرش رفضت الإذعان لتلك القرارات واتخذت مواقف سياسية معارضة لها. وتحولت بعض تلك المواقف إلى حركات عصيان وعمليات عسكرية ضد سلطة الإنتداب. وتخللتها فترات هدنة ومفاوضات. واستمرت تلك الحركات بين كر وفر وهدنة كانت تليها معارك على امتداد بضعة أعوام انتهت في عام 1925 بإعلان الثورة الكبرى. وتشكلت قيادة للثوار واختير سلطان الأطرش قائداً عاماً لجيوشها. ووجه في أول بيان صادر عنه النداء إلى حمل السلاح وأعلن في نهايته اهداف الثورة.

وفيما يلي نص هذا البيان: "يا أحفاد العرب الأمجاد! هذا يوم ينفع المجاهدين جهادهم،
والعاملين في سبيل الحرية والإستقلال عملهم. هذا يوم انتباه الأمم والشعوب. فلننهض من
رقادنا، ولنبدد ظلام التحكم الأجنبي عن سماء بلادنا. لقد مضى علينا عشرات السنين
ونحن نجاهد في سبيل الحرية والإستقلال. فلنستأنف جهادنا المشروع بالسيف بعد أن سكت
القلم ولا يضيع حق وراءه مطالب. أيها السوريون! لقد أثبتت التجارب أن الحق يؤخذ ولا
يعطى. فلنأخذ حقنا بحد السيف، ولنطلب الموت توهب لنا الحياة. أيها العرب السوريون!
تذكروا أجدادكم وتاريخكم وشهداءكم وشرفكم القومي. تذكروا أن يد الله مع الجماعة، وأن
إرادة الشعب من إرادة الله، وأن الأمم المتمدنة الناهضة لن تتأله يد البغي. لقد نهب
المستعمرون أموالنا واستأثروا بمنافع بلادنا، وأقاموا الحواجز الضارة بين وطننا الواحد
وقسمونا إلى شعوب وطوائف ودويلات، وحالوا بيننا وبين حرية الدين والفكر والضمير
وحرية التجارة والسفر حتى في بلادنا وأقاليمنا. إلى السلاح أيها الوطنيون. إلى السلاح
تحقيقاً لأمني البلاد، إلى السلاح تأييداً لسيادة الشعب وحرية الأمة. إلى السلاح بعدما
سلب الأجنبي حقوقكم واستعبد بلادكم ونقض عهودكم ولم يحافظ على شرف الوعود الرسمية
وتتناسى الأمانى القومية. نحن نبرأ إلى الله من مسؤولية سفك الدماء. ونعتبر المستعمرين
مسؤولين مباشرة عن الفتنة. يا ويح الظلم. لقد وصلنا من الظلم إلى أن نهان في عقر
دارنا فنطلب استبدال حاكم أجنبي محروم من المزايا الإنسانية بآخر من بني جلدته
الغاصبين، فلا يجاب طلبنا، بل يطرد وفدنا كما تطرد النعاج. إلى السلاح أيها الوطنيون
ولنغسل إهانة الأمة بدم النجدة والبطولة. إن حرينا اليوم هي حرب مقدسة، ومطالبنا هي:
1- وحدة البلاد السورية ساحلها وداخلها والإعتراف بدولة سورية عربية واحدة، مستقلة
استقلالاً تاماً. 2- قيام حكومة شعبية تجمع المجلس التأسيسي لوضع قانون أساسي على
مبدأ سيادة الأمة سيادة مطلقة. 3- سحب القوى المحتلة من البلاد السورية وتأليف جيش
ملي لصيانة الأمن. 4- تأييد مبدأ الثورة الفرنسية وحقوق الإنسان في الحرية والمساواة
والأخاء. إلى السلاح. ولنكتب مطالبنا المشروعة هذه بدمائنا كما كتبها أجدادنا من قبلنا".

بأمر سلطان الأطرش بعد إعلان الثورة إلى تشكيل لجان لقيادة الثورة في جميع المناطق السورية، إدارياً وعسكرياً واقتصادياً ومالياً وتموينياً. وتوالت المعارك في مختلف مناطق البلاد. وظلت تتراشق مع المعارك بيانات إلى الشعب تدعوه إلى الالتحاق بالثورة وتؤكد على أهدافها الوطنية ضد كل انقسامات طائفية ومذهبية. وفيما يلي بيان يصب في هذا الإتجاه موقّع من قائد جيوش الثورة سلطان الأطرش: "يا بني الوطن. . . لا تنافس في الأهواء ولا خصومات ولا أحقاد طائفية بعد اليوم، إنما نحن أمة عربية سورية، أمة مستضعفة قوية في الحق انتهت إلى المطالبة بحقها المهتم. أمة عظيمة التاريخ نبيلة المقاصد قد نهضت تريد الحياة. والحياة حق طبيعي وشرعي لكل الأمم. أمة قد قسمها الإستعمار الأجنبي فوحدتها مبادئ حقوق الإنسان وأعلام الحرية والمساواة والأخاء. نعم ليس هناك درزي وسني وعلوي وشيعي ومسيحي. ليس هناك إلا أبناء أمة واحدة ولغة واحدة وتقاليدها واحدة ومصالحها واحدة. ليس هناك إلا عرب سوريون. يا بني الوطن: ليس لكم بعد الآن على اختلاف المذاهب والفئات إلا عدو واحد هو الحكم العسكري الجائر والإستعمار الأجنبي. فانفروا إلى إنقاذ البلاد من أوضاعه السيئة وارتفعوا علم الإتحاد والتضامن والتضحية. إن حركتنا اليوم هي حركة مقدسة غرضها المطالبة بالحرية والإستقلال وضمان حقوق البلاد على مبدأ سيادة الأمة. فليتحدهم الدرزي والسني والعلوي والشيعي والمسيحي اتحاداً وثيقاً، وليؤلف بين قلوبنا الإخاء القومي ومحبة الوطن، ولتكن إرادتنا إرادة حديدية واحدة. إن قائد جيوش الثورة الوطنية السورية يطلب إلى كل العرب السوريين: 1- إعلان الإخاء الوطني بين كافة الطوائف. 2- قيام الأحياء في كل مدينة بصيانة الأمن الداخلي كل بحسب جهته عند دخول جيوش الثورة الوطنية وإنهزام المستعمرين. 3- تأليف دوريات ومخافر وطنية يمشي على رأيها الزعماء المخلصون المحترمون من الأمة لتأسيس الإتصال الداخلي لتنظيم الأمن وصيانة الأموال ومنع التحدي. 4- إرسال قوة محلية من المتطوعين إلى خارج المدينة أو القرية لاستقبال كتائب الثوار الوطنيين بالأهازيج الحماسية عند وصولهم باعتبار جميع الأمة جيشاً واحداً لهذه الثورة

المقدسة. هذه هي التعليمات التي يجب أن يتبناها الشعب السوري في المدن والقرى تأييداً للأخوة القومية والثورة الوطنية. ولتحي سوريا حرة مستقلة".

استمرت الثورة واستمر الشعب يؤيدها. واستمرت تخوض معارك ضارية بقيادة ذلك البطل الشجاع الذي يحمل اسم سلطان الأطرش. استمرت الثورة عامين حكم في نهايتها بالإعدام على سلطان. فلجأ إلى الأردن ثم إلى السعودية بعد هزيمة الثورة في عام 1927. وظل يقيم في المنفى إلى أن صدر عفو عام عنه. أما رفاقه في السلاح فقد تم اعتقالهم وظلوا ينتظرون أحكام الإعدام بحقهم إلى أن تم العفو عنهم بعد أن استتب الأمر لسلطات الإنتداب. وكان ذلك في عام 1928.

والجدير بالذكر أن الثورة السورية قد لقيت من اللبنانيين لا سيما دروز الجبل تأييداً لها. والتحق بها كثيرون منهم. وكان لحزب الشعب اللبناني الذي تأسس في عام 1925 دور سياسي في دعم الثورة تمثل بتوزيع بيانات في صفوف الجيش الفرنسي تدعو فيه الضباط والجنود للإمتناع عن مقاتلة الثوار. كما تمثل ذلك الدعم بأشكال أخرى. وقد أدى موقف حزب الشعب المؤيد للثورة إلى اعتقال الأمين العام للحزب فؤاد الشمالي ومعه عضو قيادة الحزب آرتين ماديان ونفيهما إلى جزيرة أرواد، وإلى إصدار الحكم عليهما بالإعدام. لكن العفو الذي طال قادة الثورة شمل هذين القائدين اللبنانيين. فعادا إلى لبنان ليكملا نشاطهما في قيادة الحزب الشيوعي الذي كان قد حل محل حزب الشعب. وكان ذلك في عام 1928.

تابع سلطان بعد عودته من المنفى في أعقاب العفو عنه نشاطه السياسي ضد الإنتداب. وكانت قد تشكلت عدة أحزاب وطنية تسلمت دورها في التعامل إيجاباً وسلباً مع سلطات الإنتداب. وكان سلطان قد أعلن في أكثر من مناسبة في كل المراحل التي كان فيها يمارس نشاطه العسكري ضد سلطة الإنتداب، التأكيد بوضوح عن عدم رغبته في

الزعامة السياسية أو تسلم أي مواقع في أية سلطة. وظل ذلك موقفه بعد نيل سوريا الإستقلال وخروج قوات الإنتداب الفرنسي. لكن زعامته كبرت أكثر من أي وقت مضى. إذ تحوّل إلى رمز كبير للشعب السوري. وعندما توفي في مطلع ثمانينات القرن الماضي برز بوضوح صارخ مدى ما يكنه الشعب السوري له. إذ قدر عدد الذين شاركوا في مأتمه ما لا يقل عن نصف مليون سوري من جبل الدروز بالذات ومن سائر المناطق السورية. وشارك في المأتم عدد كبير من دروز لبنان. وكان في مقدمة الذين حضروا المأتم وتكلموا فيه وليد جنبلاط وياسر عرفات.

لقد كثرت التقييمات لشخصية سلطان الأطرش من قبل معاصريه من السوريين والعرب والأجانب. لكنني أحب أن أستشهد بما قاله عنه الكاتب السوري نجاه قصاب حسن في كتابه "صانعو الجلاء في سوريا". يقول قصاب حسن: "كان سلطان الأطرش بسيطاً في حديثه، هادئاً يميل إلى الإستماع أكثر مما يميل إلى الكلام. إذا تحدث أو أجاب فبإيجاز. وإذا نظر فمن عينيه الصغيرتين الزرقاوين يطل الصفاء والعمق ومن أنفه الضخم تبدو الصلابة والكبرياء الهائلة. أما شارباه العريضان الغريزان فينسدلان بشيء من التراخي فوق شفثيه والذقن الناضرة المستديرة. لكنهما في حالات الحرج والغضب ينتصبان ويرقان كجناحي عقاب يهيم بالطيران. يحسن الكتابة والقراءة. لكنه يفضل أن يقرأ له أو يملي على كاتب أو صديق يلم بالسياسة العالمية دون أن يخوض في تفاصيلهما. يؤمن بأن في العالم قوى تتصارع لاستعباد الضعيف وتمزيق أرضه وسلب خيراته. لذلك يرى سلطان الأطرش بأن القوي لا يفهم غير لغة السيف، وأن الحنظل في العز أطيّب من ماء الحياة مع المذلة. وسلطان الأطرش حذر من السلطة. لا تذهله المفاجأة. بدوي الطباع يضرب ويبتعد استعداداً لضربة جديدة. يكابر لكنه لا يقامر برجاله. يعتز بالنصر لكنه لا يستعجله. صبور لا يسأم. غضوب لكن لا يحقد حتى على أعدائه. وهو إلى ذلك زوج مخلص عفيف لا يشرب ولا يدخن ولا يتبذل. وكان ملماً بالدبلوماسية لكن يفضل عليها صراحة

البدوي. اشتهر بالعفوية والبساطة أكثر مما اشتهر بالدهاء. يساير روح العصر دون أن يتبناها بالكلية. وعلى العكس يتعصب للتقاليد ويحميها بحماسة. يفضل التطور الهادئ على الثورة الجامحة، رغم استعداده الفطري للثورة ميال للتخلص من الجاذبية العائلية. لكنه ظل عاجزاً عن تجاوزها. يشجع العمل الوطني العام لكن دون مشاركة شخصية. يتعاون مع رجال الدين لكنه لا يستسلم لهم. قد يكبو مثل كل جواد. إلا أنه سرعان ما يتابع سيره ثابت القدم صادق العزم. لقد كان سلطان الأطرش شخصية ثورية نادرة. لا يهادن ولا يساوم ولا يأبه لما يصيبه ويصيب أسرته من عنت ومشقة. كان ضد سياسة خذ وطالب. لم يكن سلطان يسعى إلى المجد لنفسه وإنما لوطنه. ففي كل مواقفه أثبت فيها صلابته وصموده. كان الوطن همه الأوحد. فحين اضطر لمغادرة سوريا بعد أن تلاشت قوى الثوار. وبعد نحو سنتين من القتال المرير في ظروف منهكة ذهب إلى الصحراء بالتنسيق مع المجاهدين الذين كانوا في عمان. وهناك، في وادي السرحان بين الاردن والسعودية وما يسمى الآن بموقع النبك والحديثة. وهما آخر موقع سعودي قرب الأردن. ولد له ابنه البكر. ولم يكن هذا الموقع إلا بيوتاً من الشعر ورمالاً وبنر ماء. وظل فيه ست سنوات من أواخر عام 1927 إلى عام 1933.